AL - MARIFA

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٢١ السنة ٤٥ محرم ١٤٢٨ هـ - شباط ٢٠٠٧ م

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٦٦٢٢
التاريخ ١٨/١٧/٢٠١٢

الهيئة الاستشارية

د. شاكر الفحّام

د. عبد الكريم اليافي

د. حسام الخطيب

د. سهيل زكّار

د. طيّب تيزيني

أ. جورج صدّقني

هيئة التحرير

أ. كوليت خوري — د. عصام خوري

أ. شوقي بغدادي — د. سمير حسن

د. عبد الله أبو هيف

رئيس مجلس الإدارة

الدكتور رياض نعسان آغا

وزير الثقافة

رئيس التحرير

د. علي القيّم

معاون وزير الثقافة

أمين التحرير

محمّد سليمان حسن

٢٢٢

المرأة الشرقية في عيون المستشرقين

د. محمد يحيى خراط *

يتعمّد المستشرقون عندما يتحدثون عن الشرق أن يؤكدوا على فكرة مفادها أن الشرق مختلف عن الغرب وأن جوهر الاختلاف هو بين الرجل الشرقي والرجل الغربي، وبين المرأة الشرقية والمرأة الغربية. ويحرص الكتاب الغربيون على تخفيض المستوى الفكري والإنساني للشرقيين إلى درجة الإنسان الذي لا صلاح له. لذا يجب «قيادته» و «التحكم به»، ولا مانع من «قتله» و إبادة شعوب كاملة تحت ذرائع واهية منها أن تلك الشعوب هي من «أكلة لحوم البشر».

---

* باحث في التراث العلمي العربي- وزير سابق

- العمل الفني: الفنان مطيع علي

ولكن بمقدور المتوحش أن ينال أحياناً بعض عطف الرجل الأبيض إذا ما قدم له المساعدة، وهذا ما حصل مع «فرايدي Friday » حين ساعد «روبنسون كروزو»، وكذلك فإن الفتاة الهندية «بوكاهونتاس Pocahontas » يَلْصق بها الغربيون صفة «الطِيبَة» لا لشيء إلا لأنها تخلت عن شعبها وتنازلت عن منزلتها الملكية لإنقاذ رجل أبيض، «إنها مطيعة إلى أقصى الحدود» فلقد تخلت عن شخصيتها تماماً وتحولت من أميرة هندية إلى زوجة «رجل أبيض».

لقد صوّر الغرب أن أهل البلاد المستَعْمَرَة يجب أن تُحكم السيطرة عليهم ولا مانع من إبادتهم. فكولومبوس استغل حكاية «الهندي الأميريكي آكل لحوم البشر» ليحث إسبانيا على تبرير كل ما تقوم به من إبادة للشعب الأميريكي الأصلي وليشجع إسبانيا أيضاً على ممارسة تجارة الرقيق. وفي حرب الإبادة التي مارسها الأوربيون ضد هنود أميركا تم قتل ما يزيد عن ثلاثة ملايين أميريكي جنوبي بين عامي ١٤٩٤ و ١٥٠٤ وذلك بحجة أعمال «التهدئة والتدجين» التي مارسها الإسبان.

إن اختلاق نظرية همجية الشعوب «غير الغربية» كان حيوياً بالنسبة لمفهوم العالم الاستعماري. ففي أميركا مثلاً كانت الخطة تقضي بتصوير الهندي خاطفاً للنساء وقاتلاً للأطفال وجامعاً للرؤوس البشرية وذلك من أجل تبرير وحشية الرجل الأبيض الأوربي ضد الهندي. وتحت تأثير هذه الأفكار كتب تيودور روزفلت في عام ١٨٩٦ «كان المستعمرون والرواد الأوائل يشعرون في أعماقهم أن الحق هو إلى جانبهم، وأن هذه القارة العظيمة لا يمكن أن تترك لعبث الهنود المتوحشين » ١.

أما فيما يتعلق بالشرق فالأمر مختلف نسبياً، فالشرق ذو حضارة ودين وثقافة وتراث تمتد في أعماق التاريخ، لذلك كان لا بد من إلصاق «تهمة ما» بالشرق والتهمة كانت سهلة وبسيطة، ألا وهي «صفة الشر». ولذلك رأينا الروايات الأوربية عن الشرق تتضمن تركيزاً معتمداً على سمات تجعل من الشرق مختلفاً عن الغرب وتجعله أقل رتبة، فالمثال والقدوة هو الغربي وكل من خالفه كان «أدنى» وهذا ما نجده واضحاً في الروايات الغربية عن الشرق. وقد تركزت أفكار تلك الروايات في خطين بارزين: أولاهما بأن الشرق هو مكان «الفسق والملذات» وثانيهما أن الشرق هو «عالم العنف والشر المتأصلين». وقد أثرت تلك المقولتين في فكر العصور الوسطى وظلتا تترددان بدرجات متفاوتة من القوة

حتــى وقتنا الحاضــر. ومن مفرزات تلــك المقولتين أنها صورت شعوب الشــرق بأنها «خاملة.. ليس لها قدرة على حكم نفسها» ولا بد للمستعمر من أن يتدخل ليحكمها ويدير شؤونهــا، وهكــذا فالمستعمر لم يــأت كمستغــل وإنما جاء ليساعــد وينقذ أهــل البلاد الأصليــة وليرتقــي بهم إلى «مستواه الرفيع ».

ولئــن كان الشــرق بصفة عامة مستهدفاً لحكمه وتغييره و «الارتقاء به» فإن الشرقيات كُــنَّ هدفاً مباشــراً للأوربي. فالشرقيات في نظره يقضين عمرهن باللامبــالاة والكسل ولا عمــل لهــن إلاّ الاستلقاء على الأســِرّة.. أو أنهــن يمضــين وقتهن بالتدخين.

لقد كانت المشاعر الأوربية حيال المرأة الشرقيــة تتذبــذب بين الرغبــة والشفقة وبين الاحتقــار والغضب. وكانــت النساء الشرقيات يُصَورنَ إما «ضحايا للجنس» أو «ساحــرات ماكرات». وقــد رأى شاردان[1] «أنهــن أكــثر نســاء الأرض مكــراً، وأنهن

متعجرفات وغادرات، وشريرات وفاجرات» «وأنهــن يقضــين كل حياتهــن في الإعداد للجنســ وحبــك المكائد الجنسيــة»، وقد أكــد بورتون[2] على هــذه الادعاءات فيما بعد أيما تركيــز. فعندما ترجم من اللغات الشرقية ركز على النصوص الإباحية وكأن تلــك النصوص هي الشــيء الوحيد الذي يتميز به الشرق وبإمكانه أن يقدمه للغرب. ففي ترجمته لكتاب «الروض المعطار» أمعن

في التأكيد على أن الشرقيين «ماهرون في شؤون الجنس، وأنها المهارة الوحيدة التي يملكونها». وعندما تحدث عن النساء السوريات قال: «إن حريم الفئة الثرية في دمشق هم بؤرة الفساد، ولكل امرأة جاوزت صباها الأول فتاة تسميها ببنت عشرتها». ويُضيف قائلاً: «إن الحريم في سوريا كان مركزاً للممارسات الجنسية الشاذة». لقد كان بورتون ضليعاً في الثقافتين العربية والهندية، ومع ذلك فإنه اختار من تلك الثقافتين موضوعاً واحداً فقط هو الجنس في الشرق.

ومن المؤسف أن كثيراً من المستشرقين اعتمدوا على حكايا ألف ليلة وليلة لرسم صورة المرأة الشرقية، علماً أن ألف ليلة وليلة لم تكن نصاً واحداً في يوم من الأيام بل كانت حكايا شعبية يزيد وينقص مستوى التشويق فيها بحسب الزمان والمكان، يرددها «الحكواتية»، والإثارة فيها مطلوبة. وهذه الحكايا تم تداولها في بلاد الهند وفارس والعراق والشام ومصر، ولم يكن اعتبارها بحال من الأحوال أنها تمثل أدب أمة من الأمم، بل كان يُنظر إليها على أنها نوع من التسلية الهابطة كما وصفها المسعودي في مروج الذهب. أما ابن النديم فقد أقر أن لها شعبيتها عند الأميين.

لقد انتقلت قصص ألف ليلة وليلة إلى الغرب لأول مرة عام ١٧٠٤م على يد الفرنسي أنطوان غالان[٣] الذي كان مبعوثاً فرنسياً ملحقاً بالبعثة الدبلوماسية الفرنسية في القسطنطينية، وهناك اطلع على المخطوطات الشرقية ونقل جزءاً منها إلى اللغة الفرنسية. ولكن بكل أسف - مثله مثل العديد من الأوربيين قبله - ركّز جُل اهتمامه على «مظاهر العنف التي يَفْتَرِضُ أنها ملازمة للشرق».

لقد افتتن الغرب بقصص ألف ليلة وليلة وهذا الافتتان جعل العديد من الغربيين يخلطون بين الشرق الحقيقي وشرق القصص التي يقرؤوها معتقدين أن تلك القصص هي وصف دقيق للمجتمع الشرقي والمرأة الشرقية. وباختصار شديد فإن الشرق كان في عيون الغرب - وكما لخصه شاتو بريان[٤] - «حمّامات وعطور ورقص ولذات آسيوية».

ومع ذلك فهناك من أبدى شكوكه بدقةِ ترجمة ألف ليلة وليلة كما عرفتها أوروبا. وفي هذا المجال كتب رتشارد هول سنة ١٧٩٧ يقول «تشبه معرفتنا بأصل ألف ليلة وليلة من خلال النص الذي بين أيدينا، معرفتنا بجمال جسم إنساني من خلال النظر إلى هيكله العظمي».

وأمـا فكتـور هوغو فهـو عندما قدم لقصائـده الشرقيات عام ١٨٢٩م أشار إلى موجة الانبهار بالشرق فقال:

«نرانا في هذه الأيام نولي الشرق اهتماماً أكثر من أي وقـت مضى،.. فبينما كنا في عصـر لويس الرابع عشـر إغريقيي الهوى أضحينـا اليـوم استشراقيـين»، ويُضيف قائلاً: «لقد فُتنت أوروبا بشرق يومي إليها من بعيد، ويَعِدُها بمباهـج مثيرة، وبرحلة خارج الـذات هرباً من قيـود البرجوازية. وتَصَرُف الأوروبي أمـام الشرق كما لو أنه أمام امرأة». وهذا يتجلّى أيضاً في ما قاله «لـين»[٥] حـين توجه إلى مصـر التي حلم بزيارتها منذ طفولته: «وجدتني وأنا أقترب من الشاطئ كأنني عريس شرقي يوشك أن يرفع النقاب عن وجه عروسه».

لقد انجذب الأوروبي إلى الشرق بدوافع شتـى وكان الدافـع الجنسـي أحـد تلك الدوافـع، فقد كان يعتقد أنه عندما يدخل إلى الشـرق فإنـه يدخل إلى عـالم الحريم المُتخيَّـل. لقد كان الأوروبي يأتي من عصرٍ جُعِلَت فيـه المرأة واحدة مـن ثلاث: فهي إما الزوجـة المترفة التي ماتت لديها شهوة الجسـد أو هي خادمة المنـزل التي سلبها عملهـا كل جاذبيتهـا، أو أنها المومس التي تنوء بالمهمات التي أُعفيت الزوجة منها.

والمـرأة الشرقيـة كانت دائمـاً مقترنة بالمخيلـة الغربية بالقوى الخارقة للطبيعة، ف (كليوباترا) لها معرفة بالسحر والأفاعي والسمـوم، و (شهـرزاد) تعيشـ على حد السيـف، تدفـع نصلهـا عنـه بحكايات مشوقة. أمـا رقص (سالومـي) فهو مثير للشهـوة والرعب معـاً، وجمالها هو قرين الظلام والتآمـر، ومتى رقصت فإنها تهيج وتطلـق الشر من عقاله، فهي ترقص لأجل الحصول على رأس يوحنا وعندما حصلت عليه راحت تقبل الرأس المقطوع في نوبة من الاهتياج الوحشي وتصرخ..

«آه.. هـا قد قبلت فمك يـا يوحنا»..

وعـن هذه الصرخـة يقول أوسـكار وايلد بأنها كانت الوجـه الآخر لاشتهاء سالومي ليوحنا(!)

أما فلوبير[٦] فيقول عن سالومي: «على المنصة العالية راحت ترقص بعد أن نزعت عنها غلالتها، كان تخطـو بقدمها واحدة إثر أخرى على إيقـاع خلاخيلها والمزمار، وكانت تمد ذراعها كمن تنادي طيفاً يتباعد عنها باستمرار».

وأمـا ملكة سبأ فهـي خليط من نماذج عديدة من النساء الشرقيات اللواتي تخيلهن

الغرب، فهي ترقص مثل سالومي وتروي الحكايات مثل شهرزاد ولها بعض صفات كليوباترا الملكية والعابثة.

ويُلقي وصفُ فلوبير لإحدى المصريات الضوء على طريقة رؤيته للشرق كله: «كانت تقف قبالتنا على السلم والنور يغمرها فتبرز من صفحة السماء الزرقاء التي كانت وراءها وقد ارتدت سروالاً ورديا ولفت خصرها بغلالة شفافة بنفسجية اللون.. كانت خارجة لتوها من الحمام ففاحت من جيدها روائح الطيب ».

أما «لين» فهو يقول عن نساء مصر «إنهن أكثر تسيباً من كل النساء الأخريات، وإذا ما أُعطين أي نصيب من الحرية فإن أكثرهن يسئن استعمالها ولا يمكن اعتبارهن في أمان ما لم يغلق عليهن بالقفل والمفتاح».. ويَعْتقد أنهن على درجة من المكر في تدبير مكائدهن بحيث لا يستطيع أكثر الأزواج حذراً أن يحول دونها..

لقد كان «لين» يؤمن بأن سلوك النساء الشرقيات فريد بنوعه وليس هناك ما يماثله في الغرب أبداً، وأنه «حتى المومس الأوروبية لا يمكنها الوصول إلى الفحش الذي تنغمس فيه النساء المصريات».

ويضيف بأن «النساء الشرقيات منغمسات في العديد من الانحرافات الجنسية التي لا تعرف النساء الغربيات شيئاً عنها » ؟؟

لقد كان الأوربيون يعتمد بعضهم على شهادات بعض لتدعيم الصورة التي رسموها للشرق وكان همهم أن يوحوا بأن الشرق مليء بالظواهر الشاذة وليس بمقدور اللغة الإنكليزية أن تعبر عن بعضها لأنها في غاية المجون والعنف. وهكذا تُطرح أمام القارئ صور الحريم بهدوء المريب وأخطاره ولذائذه الخفية وما تراكم فيه من تفاصيل، وبقصد التشويق ولا شيء غير التشويق. وعندما يصف لين راقصات ماجورات يقول عنهن: «كن يعرضن أنفسهن أمام الرجال ولا شيء يسترهن سوى بنطال وثوب فضفاض مفتوح من أعلى الصدر حتى القدمين.. أما المشاهد التي تلت فلا يمكنني وصفها » !؟؟

وعندما قرن «لين» الشرق بالانحراف الجنسي فإنه لم يخرج عن تأكيد التحامل الغربي المعروف عن الشرق عامة والعرب خاصة. فالفكرة العتيقة عن «شرق فاحش» كانت مرتبطة في ذهن إنكلترا الأليزابيتية بموضوع النزعة الجنسية، كما أن رفاهية الغنى كانت تترافق باستمرار مع الفسق والخمول. فالشرقيون هم «أناس فاترو

الهمة في غرف الحريم ولا يشبهون في شيء الإنكليز أصحاب الهمة والنشاط ».

إنــه لمن المؤسف فعــلاً أن نرى أن عدداً كبيراً من الكُتّاب الأوربيين لا يرى في الشرق إلا المومسات والنساء العاريات يكتب عنهن أو يرسمهن، وتصبح كتاباته ولوحاته مطلوبتين في أوروبــا أكثر من غيرهمــا. فعندما سئم الغرب مــن الكتابات الكلاسيكية واللوحات الرصينة ألفَّ عن الشرق ما شاء له أن يؤلف خروجاً عن المألــوف أحياناً ولغايات أخرى لا تخلــو من خبثٍ ومكــرٍ وهي رسم الشرق وتأطــيره بما يظهــره بمظهريــن.. كسول اتكالي.. ومجتمع لــذات وغرائز.. لذلك لا مانع من استعماره وحكمه.

لقد تضافــرت الكتابــات الكاذبة عن الشرق مــع جهود «الرحالــة» الغربيين في رسم صــورة أرادها الغرب للشرق ليبرر بها عدوانــه واحتلاله لأراضٍ تمتد من الصين وأندونيسيــا حتى بلاد العــرب.. طمعاً في خيراتها.. واستغلالها لموقعها الاستراتيجي الهام.. وجعلها سوقاً لمنتجاته..

لقد كانت سياســة الاستعمار ولا تزال حتى اليوم.. أكذب ثم أكذب ثم أكذب حتى يصدقــك الناس، ولكن يبدو أن الساسة في بــلاد الغرب كانوا يكذبــون ويكذبون حتى صدقوا أنفسهم..

وإننــا وبكل أسف نجــد بعض المثقفين العرب، يأخذون الكتابات الغربية عن العرب مُسَلّمــات وحقائق لا تقبــل النقاش وكان الأجــدى والأجدر أن ينظروا بعين فاحصة إلى ما يصل إلينا من كتابات لنميز الخبيث منها من الطيب، ولكي لا نكون ضحية فرية تاريخية كبرى. ■■

الهوامش

١- جان شاردان: (١٦٤٣ - ١٧١٣)
رحالــة وبائع مجوهــرات فرنسي. ولــد في فرنسا في عائلــة بروتستانيــة. اشتهر بحبــه للسفر. سافــر مع تاجر يدعى ليــون إلى بلاد الفرس والهنــد. مــن أشهر أعماله: رحــلات سير جان شــاردان وهــو عبارة عن عشرة مجلدات. توفي في لندن ودفن فيها.

٢- ريشارد فرنسيس بورتون: (١٨٢١ - ١٨٩٠).. مستشرق ومترجم وكاتب وشاعر ولغوي ومكتشف وجندي إنكليزي. عرف برحلاته واستكشافاته في كل مــن آسيــا وإفريقيا وبثقافتــه الواسعة للغات والثقافــات. من أشهر أعماله ترجمته لكتــاب ألــف ليلــة وليلة والــذي اعتبر كعمل مخزٍ في ذلك الوقت، كما رافق جون هانج إلى البحيرات الكبرى في إفريقيا بحثاً عن منابع النيل.

٣- أنطوني غالان: (١٦٤٦ - ١٧١٥)..
مستشرق فرنسي وعــالم آثار ولد في مدينة روليت

في فرنسا وتوفي في باريس، شغل منصب كرسي اللغة العربية في «كوليج دو فرانس» وبعد وفاته وُجد بين المخطوطات التي لم ينشرها ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية.

أول من ترجم كتاب ألف وليلة وليلة.

٤- شاتوبريان (١٧٦٨ - ١٨٤٨)..

كاتب فرنسي ويعتبر من مؤسسي المذهب الرومانسي. كتب في السياسة والأدب والتاريخ. من أعماله: بحث في التاريخ والسياسة والأخلاق للثورات القديمة والحديثة، البونابرتية والبوربونية، دراسات تاريخية، رحلة في أميركا.

٥- إدوارد ويليام لين: (١٨٠١ - ١٨٧٦)..

يعتبر من أبرز الدارسين الأوربيين للغة العربية وُلد في مدينة هيرفورد في إنكلترا. فُتن بنمط الحياة المصرية فانتقل للعيش في القاهرة وأكمل دراسته فيها ، ودفعه ذلك لنشر كتابه الذي يتحدث فيه عن عادات المصريين.

من أبرز أعماله التي قام بنشرها في مصر : ترجمته للإنكليزية كتاب ألف ليلة وليلة والذي اعتبر في حينه موسوعة للعادات الشرقية. كما بدأ بتجهيز «القاموس العربي» لكنه توفي قبل أن يتم نشره بالكامل وقام بإكماله من بعده لين بول.

٦- غوستاف فلوبير: (١٨١٢ - ١٨٨٠)..

روائي فرنسي ينتمي للمدرسة الواقعية. بدأ بالكتابة منذ سن الخامسة عشر. من أشهر أعماله «مدام بوفاري » التي تتحدث عن الحياة البرجوازية الفرنسية.

☆ ☆ ☆